جبران خليل جبران .. الفنان الخالد والأديب المبدع

عادل الغضبان(*)

من الأودية العظيمة في شمال لبنان واد مهيب رائع عميق الغور بعيد القرار يسمى "قاديشا" أي الوادي المقدس، قامت على جانبيه جبال عالية ضخمة تنوع أديمها بين الحجر الصلد المسنون الأطراف والريود وبين التربة الخصبة المكسوة بالغابات والكروم والخمائل تسقيها العيون المتفجرة من بطون الهضاب أو شلالات الماء المنحدرة من رؤوس الجبال إلى ذلك الوادي المقدس في دوي يأخذ بالمسامع والألباب ورشاش يتطاير في الفضاء على أجنحة من ألوان الضياء.

وعلى كتف من أكتاف الجبل الناهض فوق عدوة الوادي الغربية تناثر في ثنايا الأشجار والمراعي عدد من البيوت المتواضعة وقد ألبست سطوحها بالآجر الأحمر وبدت لعين الرائي في حلتها القرمزية حبات رمان متناثرة بين زبرجد الشجر وسندس الأعشاب.

تلك المجموعة من المنازل تتألف منها قرية صغيرة من قرى لبنان الشمالي تدعى بشري» وفي تلك القرية الوديعة الغافية عند سفح غابات الأرز الخالد والمطلة على الوادي[٢] المقدس تجثم عند أقدامها مواكب

---

٢ *المراجع: جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمة. ، رسالة المنبر إلى الشرق العربي» لفلكس فارس. «رسائل جبران» تقديم جميل جبر. «كلمات جبران» جمع أنطونيوس بشير.

السحاب وتتوج فرعها نجوم السماء ولد جبران خليل جبران في السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٣، فكان مولده في قريته المتواضعة ميلاد لؤلؤة في صدفة لن تلبث يد الزمن حتى تشق عنها الغلاف فيبهر حسنها البصائر والأبصار.

في مدارج الجمال

نشأ الصبي جبران في تلك البقعة الجميلة فوقعت عينه منها على مفاتن من الجمال وأخذ من السحر، تملت نفسه منها وأفعم بها ذهنه الصغير وخاطره، فكانت أول إحتكاك بزناد العبقرية الكامن وراء نفس قدر الله لها أن تحلق يومًا في أجواء الفن والنبوغ.

وترعرع الصبي جبران في كنف أسرة لاتتميز بسبب من أسباب العلم والرقي والحضارة ولا تنعم بشيء من متع الغني والثراء، فإنما هي أسرة فقيرة يتلمس فيها الأب رزقه ورزق عياله من إلتزام عد الغنم في مدارج الجبال ومن تفتيت الصخور وإستنباتها بعض الخضر والثمار. وكان من الطبيعي أن ينشأ الفتى مضطلعا بشؤون الغنم والماعز على غرار أبيه بل كان لا بد له أن يحترف تلك المهنة التي نوى أبوه أن يدربه عليها ليستقل بها يومًا ويكسب منها رزقه لولا أن الأقدار تداخلت في مصير الفتى وأعدته لغير ذلك من المهن والحرف.

كان الفقر مخيمًا على أسرة خليل جبران، ولكنه الفقر الذي لا يتطاول إلى الكرامة والوقار ولا يرقي إلى الإستقامة ومكارم الأخلاق، فلئن

ألتقط رب الأسرة رزقه من شقوق الصخور وطيات الثري ولملمه من تحت أظلاف الأغنام والمعيز فإنه كان يقدر نفسه حق قدرها وينزلها المنزلة الكريمة بين الأقارب والجيران، فمهما ضاقت الدنيا في وجهه ومهما نأت به الحياة عن مباهجها ومهما تناول هو وأفراد أسرته الطعام على خوان من الحصير المجدول، فما بخل على طفله بالعلم يتلقاه في مدرسة القرية.

جبران الصبي

اختلف الصبي جبران إلى مدرسة القرية حتى الحادية عشرة من عمره، وأستطاع في خلال سنوات الحداثة أن يظفر بنصيب ضئيل من اللغتين العربية والسريانية. وما من شك في أن إختلافه إلى المدرسة وتعلم القراءة والكتابة وتفتح ذهنه الصغير لإستيعاب العلم كل هذا قد عمل على إبراز المواهب اللدنية فيه فنراه منذ نعومة أظفاره يميل إلى الرسم والتصوير، وإنه لحدث عظيم عجيب في قرية نائية عن العمران لم ينبغ فيها رسام ولا مصور بل لم يعرف بنوها ولا المدرسون فيها هذا الفن الجميل.

وبرزت بوادر هذا الفن في جبران الصغير يوم قدر له أن يكون موضع القصاص والعقاب لأنه لم يحسن قراءة مثالية السريانية، فيغضب قس المدرسة عليه ويحبسه في قاعة الدرس ويفرض عليه أن يكتب المثالية عشر مرات تأديبًا له وعقابًا ولشد ما أسقط في يد القس وأثار في نفسه سورة من الغضب والرضي معًا عندما وقعت عينه على دفتر جبران فرأى فيه أن الطفل لم يكتب القصاص المفروض عليه بل أستعاض عنه برسم شبه حمار نائم وعلى رأسه قلنسوة سوداء وفي أذنه الواحدة قد علق كتاب

وفي الأخرى مخلاة .

لم يكن هذا الرسم هو أول ما رسم الصبي جبران، فقد سبق له أن أعتمد على قطع من الفحم رسم بها على جدران المنزل أشكالًا وصورًا ثارت لها ثائرة أبيه فأنهال على الطفل توبيخًا وتقريعًا، غير أننا نستطيع أن نعد رسم الحمار المقدس الشرارة الأولى التي إنطلقت من جذوة الفن الكامنة في جوانحه وضلوعه فدلت على موهبة الله، ولعل علماء النفس الذين يغوصون في أعماق النفس البشرية ويصلون كبائر الرجولة والكهولة بصغائر الطفولة والحداثة يرون في ذلك الرسم البادرة الأولى التي حفزت جبران في مستقبل الأيام إلى معاداة القسيسين وشن الحملات عليهم في بعض مؤلفاته. ولعل علماء النفس إذا علموا أيضًا أن الطفل جبران خرج وهو في السادسة من عمره إلى البرية يوم الجمعة الحزينة ليتعذب مع المسيح على حد قوله ثم عاد منها في المساء بباقات الأزهار والرياحين ليزين بها قبر السيد المسيح. إذا علموا هذا وعرفوا أن فكرة الألم والعذاب كانت مغروسة في نفس جبران منذ طفولته سهل عليهم الكشف عن أغوار نفسه وتفسير صيحات الألم التي جار بها طول حياته...

مغامرة في سبيل الرزق

ما أضيق الرزق ينقب عنه المرء في طبق الأرض وجلامد الصخور، وما أشقى العزائم الكبيرة إذا حصرها القدر في نطاق ضيق من ميادين الحياة ولقد أثر عن اللبنانيين أنهم قوم ذوو عزائم وهمم كبار تقسو الحياة عليهم فلا تلين قناتهم وهم حفدة الفينيقيين حبهم لركوب البحر ومعاقرة

الأسفار وعرفوا مع هذا وذاك بنفوس أبية تقدس الحرية ولا تستنيم للذل والهوان. ويشاء القدر أن يضيق الرزق بلبنان في عهد المترجم له وأن توأد فيه الحرية وتنشر أعلام الظلم والإستبداد، فهب فريق كبير منهم يركب غارب البحر سعيًا وراء الرزق أو نشدانا للحرية.

وحذت أسرة جبران حذو الألوف من الأسر فحزمت أمرها وشدت الرحال إلى أمريكا وكانت الأسرة تتألف من جبران وأخيه الأكبر وشقيقتيه الصغيرتين وأمهم جميعًا... أما الوالد فبقي في القرية يدبر شئون رزقه القليل.

إختارت الأسرة مدينة «بسطن» فألقت فيها عصا التسيار، وكان الأمل الباسم يضيء جوانح الأم فقد أنقذت بكرها وكان في الثامنة عشرة من عمره من عمل يتصل برعي الغنم وحراثة الأرض وأنقذت أخاه الصغير جبران، وكان في الثانية عشرة من عمره، من مصير لا يختلف عن هذا المصير ورجت أن يكون لهما ولشقيقتيهما متى بلغتا أشدهما مجال رحب في العمل الكريم والحياة الهانئة. وقضي الفقر وضيق ذات اليد أن تحل الأسرة في حي وضيع من أحياء بسطن فكان حي الصينيين.

جهاد في سبيل العلم

وينتظم الفتى جبران في سلك إحدى المدارس ويقبل على الإرتشاف من مناهل العلم بنهم لا مزيد عليه، فتفتح له اللغة الإنجليزية آفاقًا جديدة من التفكير لا عهد له بها قبل ذلك الحين. وكان في خلال

الدراسة لا يفتأ يجيل قلمه راسمًا مصورًا فيلقي من مدرس الرسم ضروبًا من التشجيع والإعجاب ويقدمه إلى رسام من كبار الرسامين فيعجب به ويلمح في هذا الفتى الشرقي عبقرية متوارية لابد أن تنجلي يومًا مشرقة وضاءة.

ويعود الفتى جبران إلى بيروت ليستكمل دراسته العربية ويقضي في وطنه أربع سنوات ثم يرجع بعدها إلى بسطن وهو في الربيع العشرين ليبدأ حياة الجهاد والكفاح وليتلقى ضربات الدهر واحدة تلو أخرى.

لم تنقطع أمه "كاملة" ولا أنقطع "بطرس" أخوه الأكبر عن العمل ليل نهار ليمكنا جبران من أسباب العلم وها هي ذي شقيقته الكبرى "مريانا" وشقيقته الصغرى "سلطانة" تنضمان إلى العاملين وتقفان أبرهما على إنتزاع الرزق من أشداق القدر القاسي في ذلك المزدحم الذي يمشي فيه القوي على هام الضعفاء. فكم من مرة ناجت الأم ربها قائلة: "سبحانك اللهم أنترك قريتنا الهادئة الوادعة إلى هذا المصطخب المدوي بعزيف الجن؟ أنهجر أهلنا وجيراننا وبني جلدتنا إلى قوم غرباء عنا في الجنس واللغة والعاطفة؟ أندع بيتنا الجميل الملألئ بأشعة الشمس تحف به الغابات والخمائل إلى هذا الكهف المظلم المتداعي وهذه الأزقة الملتوية؟ فأي مغنم كان لنا من هجرتنا؟ فنحن لا نزال فريسة الفقر وشظف العيش، بل زادنا الزمن شقاء وبؤسًا بهذا العمل المتواصل الذي يستنزف نور العين ودم الفؤاد وبهذه الأدواء التي بدأت تنشب أظفارها فينا فرحماك ربي رحماك... ".

ثلاث كوارث!

رجع جبران إلى بسطن فإذا داء السل قد اختطف شقيقته الصغرى منذ أيام فترتح من هول الفجيعة، ولكنه تماسك وتمالك نفسه رحمة بأمه وإشفاقًا عليها ثم ما عتم القدر أن فجعه بعد زمن قصير بأمه وشقيقه الأكبر ذهبا ضحية ذلك الداء الوبيل فتقطعت نفسه حسرات وأظلمت الدنيا في عينيه وهاله أن يجر أثقال الحياة أسير الحزن والفقر، غير أنه سرعان ما ألم بنفسه المتضعضعة وسرعان ما أهابت به عزيمته الجبارة إلى الجلاد والكفاح ومواجهة أحداث الزمان بالصبر الجميل والعمل المتواصل. وكان له في شقيقته "مريانا" الأسوة الحسنة فقد أصبحت عائله الوحيد يتلقى رزقه من ثقب إبرتها الضيق، فكم عصر قلبه إنكبابها على الوشي والتطريز آناء الليل وأطراف النهار لتستطيع أن تقوم بأودها وأوده فكل شكة إبرة منها إنما كانت تشك في صدره وتخزه بوخزات الأسى والألم.

في ميدان الجهاد

كان الشاب جبران قد بدأ ينشر نفثاته في الصحف العربية بعنوان "دمعة وإبتسامة" فتلقي الرضي والإعجاب وتبقي عند حد الرضي والإعجاب لا توفر له ولشقيقته صبابة من قوت. وكان في أثناء ذلك قد وطن النفس على ألتماس الرزق من نتاج ريشته فأنصب يرسم ليل نهار على أمل أن يعرض رسومه في معرض عام لعله يبيع منها شيئًا يدفع بثمنه عنه غائلة الفقر.

عز على الأقدار أن ترأف بالشاب النشيط العامل وأن تبدله من يأسه أملا ومن عسره يسرا، فقد أخفق المعرض إخفاقًا ذريعًا وأضمحلت معه الآمال الجسام ومر الزوار بالرسوم والألواح فما أسترعت إنتباههم ولا وجدوا في فنها ما يحملهم على شرائها وربما كانت مسحة الكآبة المتجلية فيها ورموزها الخفية سببًا في إعراض القوم عنها.

لا عجب أن يستوحي جبران الألم ويصوره في ألواحه فهل كانت حياته حتى ذلك اليوم إلا كأسًا من الآلام شربها حتى الثمالة. إن فجيعته بشقيقته الصغرى أولًا أوحت إليه برسم لوح جعل عنوانه: «عودة الروح» وفجيعته بأمه وأخيه الأكبر ألهمته برسم لوح سماه «فوارة الألم» وإضطرابه في محيط الحياة بلا سند ولا عون وتخبطه في أثباجها تخبط الفريق أوحي إليه بصورة رقصة الأفكار وقد جلا كل هذه المعاني في فن جديد يعتمد على الرمز ولا يحفل بالبيان والوضوح فكان علة الإخفاق.

قد تكون الجدة في صور جبران علة إخفاقه فالناس أعداء لما جهلوا، وقد تكون العلة إعتماد جبران على موهبته الأصيلة التي لم تصقل بالدرس والتهذيب وكأنما قد رق القدر لحال الفتى بعد إذ شهد عذابه وجهاده الطويل ورآه لم يبع صورة واحدة من صوره، فدفع إليه في أخريات أيام المعرض بسيدة أمريكية تدعي "ماري هسكل" رئيسة مدرسة "مس هسكل" وصاحبتها وكانت على شيء من الدراية بالفن فأعجبت بفن جبران كل الإعجاب وإبتاعت من الواحه "عودة الروح" و"فوارة الألم" وأزداد إعجابها بفنه لما شرح لها من معاني الرموز ودقائقها وحاضرها في

الفن وروحه ومراميه بلهجة فصيحة قوية مستمدة من قوي نفس تعتقد ما تقول وتعرب عنه أجمل إعراب، فنعمت السيدة بكلامه ورفرفت روحها في أجواء من الفن والروحانية ودت لو أطالت فيها التدويم والتحليق فكانت زيارة هذه السيدة للمعرض البسمة الأولى من فجر النجاح.

جبران في باريس

توثقت عري الصداقة بين جبران و ماري هسكل فعرض ألواحه في مدرستها وكان الفن محور الحديث بينهما يفيض جبران في وصف آياته وخوافيه و تنصت ماري هسكل إليه تعب من ذلك الينبوع المتدفق وتروي منه روحها الظامئة حتى اقترحت عليه يومًا أن يسافر إلى باريس ويتصل بزعماء الفن في مدينة النور ويأخذ عنهم طرائقهم وخوافي فنونهم ويعود بعد ذلك مصقول الملكة وضاء العبقرية، فتبسم جبران إبتسامة حزينة فأنى له تحقيق تلك الأمنية الغالية وهو فقير معدم لا يكاد يكسب قوت يومه، ففهمت السيدة الأمريكية معنى إبتسامته وهز الفن والخير أريحيتها فأغرته بالسفر ووعدته بأن تبعث إليه في مطلع كل شهر بخمسة وسبعين دولارًا يستعين بها على مواجهة الحياة بباريس، فشكر لها يدها البيضاء وأنساه معروفها نكبة جديدة حلت به وهي إحتراق رسومه وألواحه كأنما قدر لهذا الشاب التعس أن يكون دائمًا أبدًا حليف الرزايا والنكبات وأن لا يذوق جرعة من هناءة إلا ممزوجة بصاب البؤس والشقاء.

وما هي إلا أيام قلائل حتى كان جبران أحد سكان الحي اللاتيني بباريس وتلميذًا من تلامذة معهد الفنون الجميلة ينهل من معين الفن ولا يرتوي.

قضي جبران بباريس ثلاث سنوات لم ينقطع في خلالها عن الدرس والتحصيل والوقوف على أسرار الفنون وإستيعاب مذاهب الجهابذة الأعلام ممن طار لهم صيت جميل في أجواء الفنون ولم يكتف بما في باريس من متاحف يقضي فيها الساعات الطوال من بياض نهاره فاحصًا دارسًا متأملًا بل أراد أن يلم بروائع العواصم الأوربية فزار روما وبروكسل ولندن ووقف في متاحفها وقفة العابد المتخشع يتملى مما تقع عليه عينه من آيات يلألئ فيها وحي العبقرية في سماء الأدهان والألوان أو في تجاليد الصم الصلاب من الأنصاب والتماثيل.

ولم تكن حياة جبران بباريس وقفا على دراسة الفن بل كان للأدب فيها نصيب كبير فطالما قضي سواد ليله منكبًا على الكتابة والتأليف يسكب في كؤوس الحروف روحه التي يسكبها مع طلاء صوره وألواحه.

بين التصوير والأدب

وكان جبران حتى ذلك العهد قد أصدر عدة كتب منها "الموسيقى" و"عرائس المروج" و"الأرواح المتمردة" فضلًا عن الفصول والمقالات التي كان ينشرها في مختلف الصحف العربية في الوطن العربي والمهجر. وطالما رجع إلى نفسه وفكر في شأنه وتساءل أيطلب رزقه من شق القلم أم من لمة المنقاش. لقد زاول الكتابة فما درت عليه بشيء وزاول التصوير فما فتح له أبواب الرزق. إنه يهوى التصوير مثلما يهوى الكتابة، أفحتم عليه أن يتخصص بأحد هذين الفنين ويهجر الآخر؟ ترى أتسعفه القريحة لو زاولهما معًا أم تذهب بددا فلا يصيب فيهما إلا نجاحًا

ضئيلًا؟ كانت مثل هذه الأسئلة تراود فكره فلا يستطيع عنها جوابا فكلا الفنين حبيب إلى نفسه وكلا الفنين يغريه بمتع الوصال وكلا الفنين أوحي إليه بآثار جميلة فأيهما يهجر وأيهما يؤثر وهو الذي يقول في رسالة بعث بها إلى إبن عمه: "... أنا أصرف حياتي بين الكتابة والتصوير ولذتي في هذين الفنين تفوق كل لذة... " على أن تفكيره في الإنقطاع إلى أحد الفنين لم يطل فقد صمم أن يخلص للحبيبين وأن يعيش لهما ويتخذهما أداة للتعبير عما يجيش في صدره من عاطفة متقدة، فإن كانت الألوان والأصباغ قد وفرت له أسلوب التعبير فالحبر والورق يهيبان به أيضًا إلى أن يجعلهما رسول الفكر إلى العقول والقلوب. وفي ذلك يقول لإبن عمه في نفس الرسالة التي أشرنا إليها:...إن هذه الشعلة التي تغذي عواطفي تريد أن تتخذ لها ثوبًا من الحبر والورق".

بقي جبران زمنًا مشغول الفكر مقسم الفؤاد بين التصوير والكتابة حتى قدر له أن يزور يومًا هو ونفر من زملائه المثال العظيم "روادن" أقبلوا عليه في مرسمه ومنحته يسألونه ويأخذون عنه، فأستفاض الرجل يحدثهم عن الفن وأهله وعن أسراره وعباقرته وتطرق به الحديث إلى الكلام عن "وليم بلايك" ذلك المتفنن العظيم والمصور الشاعر الذي أتخذ التصوير والشعر أداة يعرب بهما عن خلجات فكره ونبضات قلبه فكان في كليهما الإمام المبرز.

خرج جبران من لدن "روادن" والدنيا لا تسعه من شدة الفرح فقد نزل كلام الأستاذ بردًا وسلامًا على فؤاده فلا حيرة بعد اليوم ولا تردد،

فلسوف يظل يكتب ويصور ولسوف يكون له من "وليم بلايك" القدوة الحسنة والمثال الجميل.

ولكن سرعان ما شاب هذه الفرحة حزن جديد، كأنما الفرح أمر محرم على هذا الفتى إلا إذا تحلب بعصارة البؤس والألم، فما أن يشعر بإنطلاق أجنحته في عالم الفن مصورًا وكاتبًا، حتى يفاجئه القدر القاسي بنعي والده فيشرب لوعته وينثني على قلبه الدامي المفجوع بأمه وأخيه وشقيقته الصغرى، فإذا هو في غشاء من نبال – كما يقول المتنبي – وإذا نصل الفجيعة بأبيه يتكسر في فؤاده على النصال السابقات.

عزيمة تتغلب على النكبات

قفل جبران عائدًا إلى بسطن بعد أن تزود بخير زاد من الفنون الأوربية وآدابها ومكث في هذه المدينة نحوًا من إثني عشر شهرًا فريسة البرم والتأفف وضيق الحال، وكانت الذكريات السود ماثلة لعينيه وفؤاده كلما أجال طرفه في ذلك المنزل التاعس وذكر أحبابه الذين صرعهم فيه داء السل، فخرجوا منه إلى سكنى المقابر والأجداث. وكان يزيد نفسه ألمًا وعذابًا أنه لا يزال وهو في الثامنة والعشرين من عمره عالة على شقيقته وعلى المحسنة الأمريكية ماري هسكل فيثور في وجه القدر ثورة دفينة تقطع نياط قلبه يأسًا وتعذيبًا ويهتف بنفسه قائلًا: «شربت كأس البؤس حتى الثمالة وفجعني الدهر بأعز الناس إلي وذقت مرارة الغربة ورضيت بالإحسان أنهله من كف شقيقتي العاملة ويد السيدة الأمريكية الخيرة، ونذرت نفسي للفن وبلغت فيه مقامًا أغبط عليه وعملت منذ صباي ليل

نهار ولما أظفر بفتات من موائد الفوز، فحتام هذه الحرب أيها الدهر الغليظ الكبد.

على أن المصائب والنكبات ما كانت لتفت في عضده وإنما كانت تشحذ عزمه وتزيده قوة وجلدًا على الجهاد والكفاح وفي هذا يفتح صدره لإبن عمه ويقول له في إحدى رسائله:

"تأمل قليلًا يا نخلة بحياة جبران ترها نوعًا من الجهاد والنزاع بل هي شبيهة بسلسلة مصائب آخذة حلقاتها بعضها برقاب البعض. أقول هذا وأنا صابر متجلد، بل فرح بوجود المصاعب في حياتي لأنني أرجو وأريد أن أتغلب عليها إذ لولا المصاعب لما وجد الجهاد والعمل ولكانت الحياة قفراء باردة مملة".

ومهما أوتي الإنسان من قوة الصبر والعزيمة وقوة النضال والجهاد فقد يضعف أحيانًا إزاء النكبات المتوالية ويدفعه الإخفاق في الحياة إلى تلمس مواضيع علل الإخفاق الذي مني به في صدر حياته فبدت له في قسوة الغربة عن وطنه الأرضي ووطنه الروحاني. وأعرب عن تلك الغربة في إحدى كلماته فقال:

"أنا غريب وفي الغربة وحدة قاسية ووحشة موجعة غير أنها تجعلني أفكر أبدأ بوطن سحري لا أعرفه وتملأ أحلامي بأشباح أرض قصية ما رأتها عيني.

أنا غريب عن نفسي فإذا ما سمعت لساني متكلمًا تستغرب أذني صوتي.

أنا غريب عن جسدي وكلما وقفت أمام المرآة أرى في وجهي ما لا تشعر به نفسي وأجد في عيني ما لا تكنه أعماقي.

أنا غريب وليس في الوجود من يعرف لغة نفسي.

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ولهذا أنا غريب وسأبقى غريبًا حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني".

رأى جبران أن مدينة بسطن تقسو عليه بذكرياتها الأليمة وتضيق في وجهه مجال المعاش فهجرها إلى نيويورك لعله يجد في مجاليها الفساح تحقيق ما يصبو إليه من الآمال.

كان الرجل صاحب آمال وأحلام وهو القائل في إحدى كلماته: «أفضل أن أكون أحقر الناس ولي أحلام أرغب في تحقيقها من أن أكون أعظمهم ولكن بدون أحلام ولا رغبة».

ضرب في نيويورك مع الضاربين في مناكب الرزق وعاش فيها نحوًا من تسعة عشر عاما يقدس العمل ولا شيء غير العمل. وتلك خلة أثرت عن الأمريكيين فالوقت عندهم أثمن شيء في الحياة كما أن العمل هو أقدس مقدساتها ولقيت تلك الخلة من فؤاد جبران هوى حبيبًا فأقبل على العمل لا تأخذه فيه ونية ولا هوادة.

وفلسفة جبران في حب العمل وتقديسه بارزة في متنوع أثاره فلنجتزئ منها بأثرين إثنين، أولهما فقرة من رسالة كتبها إلى إبن عمه بلبنان يقول فيها:

أنا أحب العمل يا نخلة ولا أدع دقيقة من وقتي تمر بلا عمل. أما الأيام التي تكون فيها نفسي راقدة وفكرتي خاملة فهي أمر عندي من العلقم وأشد قساوة من نياب الذئاب.

وثانيهما قوله عن العمل:

"إن العمل هو الصورة الظاهرة للمحبة الكاملة فإذا لم تقدر أن تشتغل بمحبة وكنت متضجرًا ملولًا فالأجدر بك أن تترك عملك وتجلس على درجات الهيكل تلتمس صدقة من العملة المشتغلين بفرح وطمأنينة لأنك إذا خبزت خبزًا وأنت لا تجد لك لذة في عملك فإنما أنت تخبز خبزًا علقمًا لا يشبع سوى نصف مجاعة الإنسان وإن أنت أنشدت أناشيد الملائكة ولم تحب أن تكون منشدًا فإنما أنت تصم آذان الناس عن الإصغاء إلى أناشيد الليل وأناشيد النهار".

ذلك رأي من يحب العمل ويقدسه فإذا حالت دونه يومًا عقبة من العقبات أو علة من العلل ملأ الأسف صدره وصاح مثل هذه الصيحة التي بثها جبران صديقه الحميم ميخائيل نعيمة في إحدى رسائله إليه قائلًا:

"أنا في هذه الأيام بين ألف عمل وعمل مثل نحلة مريضة في حديقة أزهار. ما أكثر العسل وما أجمل أشعة الشمس على الأزهار. ولكن النحلة مريضة مشوشة. صل من أجلي وأكتسب أجري... ".

إنتصارونجاح

عمل جبران وكافح وطالع الناس بأفكاره الجديدة مبثوثة في كتبه ومقالاته وبفنه الجديد متألقًا في ألواح صوره حتى قهر الزمن وفرض نفسه على عصره وجيله فطارت له شهرة في التصوير فأقبلت عليه الدنيا وذاع له صيت في الفلسفة والأدب فلفت إليه الأنظار والقلوب.

وكان صاحب رسالة بثها الناس بصورة فأستوعبتها الخاصة من أهل الشرق والغرب على السواء فلغة التصوير لغة عالمية لا تستعصي على فهم الحاذقين من عشاق هذا الفن وعارفيه مهما أختلفوا مواطن وبلادًا، وقام كذلك يبث الناس رسالته في أدب جديد أطلع على الشرق العربي فجرًا جديدًا زاهر الأشعة واللألاء وكان قوام ذلك الأدب الجديد الغوص في أعماق النفس وتطويع اللفظ للفكرة المثمرة والعاطفة المتقدة، ثم شاء جبران أن يكون رسول الشرق إلى الغرب يحمل إليه كنوز الحكمة الشرقية وذخائر الفكر العربي فكتب باللغة الإنجليزية عدة كتب منها "المجنون" و"السابق" و"النبي" و"رمل وزبد" و"آلهة الأرض" فغزا نفوس أهل الغرب وحملهم على أن يتطلعوا إلى الشرق ويكبروا شأن عباقرته. وكثيرًا ما زين جبران كتبه برسومه فأجتمع فيها قلم الأديب وريشة المصور فدرت عليه تلك الكتب مالًا وافرًا أستطاع به وبما كان يكسبه من ألواح صوره أن يطأ بقدميه الفقر وينعم هو وشقيقته بحياة هانئة ميسورة وتصل ثروته إلى نحو من مئة ألف دولار وهي ثروة ما حلم بها في عهده ولا بعد عهده كاتب ولا مصور من كتاب هذا الشرق أو مصوريه وإنها لثمرة الجهد والعمل وجزاء المثابرة.

ذلك الصبي القروي المولود في قرية متواضعة من قرى لبنان يصبح

بجده وإجتهاده وعمله المتواصل وصبره على مقارعة الأحداث علمًا من أعلام الفن والأدب يلهج بذكره المشرق والمغرب وينزلانه في الذروة من مساحب النجوم.

وليست هذه العجالة دراسة لفنه وأدبه حتى نمضي فيهما باحثين متقصين معللين وإنما هي ضربة منقاش تحاول أن تصور لنا العصامية كيف تكون والعمل كيف يقدس والعزيمة الجبارة كيف تأكل نيرانها وقود المصاعب والمصائب في هذه الحياة.

وإذا نحن تجاوزنا عن الدراسة المستفيضة نعرض بها أدب جبران وفنه في عالمي الأدب والتصوير، فلا أقل من أن نحلي هذه الترجمة ببعض أقوال العظماء فيه.

قال الكاتب الأمريكي الكبير "برزباين" وهو من هو: "لو كنت من المؤمنين برجوع المسيح إلى الأرض مرة أخرى لأيقنت أنه عاد بشخص جبران خليل جبران".

وقال الزعيم الديني "فرنكل" عن كتاب «النبي»:

"أعترف أنه لم يسبق لي قط أن تحر كت نفسي من أعماقها كما تحركت بعد أن تلوت كتاب النبي مرات كثيرة".

ولئن كان للنحات الفرنسي العظيم "رودان" فضل القضاء على تردد جبران يوم حاضره عن "وليم بلايك" أنه نظر بعين الفاحص الخبير إلى هذا

العبقري الشرقي فقال عنه:

"يجب أن يتوقع العالم شيئًا كبيرًا من جبران شاعر لبنان ونابغته فهو وليم بلايك القرن العشرين".

ومع هذا كله فجبران فيما رسم و نثر و نظم وفيما جاء به من بدائع وروائع لم يكن راضيًا عن نفسه لأنه رأى أعماله دون الكمال الذي سعت إليه نفسه الكبيرة، وهكذا العظماء يأتون بالنفائس بل بالمعجزات ويرونها مع ذلك أبعد ما تكون عن الكمال الذي ينشدونه وتتطلع إليه نفوسهم. وجبران واحد من هؤلاء العظماء المغرمين بالمثال الأعلى فقد عرض لآثار قلمه وريشته في عددها وروعتها فوجدها ضئيلة صغيرة لا تصور الشعلة المقدسة التي تضطرم بها جوانحه وفي هذا يقول في رسالة بعث بها إلى الآنسة مي:

"أنا يا مي بر كان صغير سدت فوهته، فلو تمكنت اليوم من كتابة شيء كبير أو جميل لشفيت تمامًا... لا تقولي لي: أنشدت كثيرًا، وما أنشدته كان حسنًا، لا تذكري أعمالي الماضية لأن ذكرها يؤلمني لأن تفاهتها تحول دمي إلى نار محرقة... لقد ولدت وعشت لأضع كتابًا – كتابًا واحدًا صغيرًا – لا أكثر ولا أقل، قد ولدت وعشت وتألمت لأقول كلمة واحدة مجنحة، ولكنني لم أصبر، لم أبق صامتًا حتى تلفظ الحياة تلك الكلمة بشفتي. لم أفعل ذلك بل كنت ثرثارًا فيا للأسف ويا للخجل وبقيت ثرثارًا حتى أنهكت الثرثرة قواي. وعندما صرت قادرًا على لفظ أول حرف من كلمتي وجدتني ملقي على ظهري وفي فمي حجر صلد... ".

ذاك تقدير نفسه الكبيرة الظامئة إلى ينابيع الكمال في الفردوس السرمدي... على أن للعبقرية تقديرًا آخر كله رضى وإنصاف وإعجاب فقد كتبته في سفر الخلود وقالت فيه أن جبران قال كلمته وأدي الرسالة...

وفي ليل اليوم العاشر من شهر أبريل سنة ١٩٣١ أسترد الله وديعته في مستشفى القديس منصور بنيويورك وسكنت حركة النسر بعد طول التدويم والتحليق وعادوا به بعد أشهر قلائل إلى لبنان الذي طالما حن إليه فإستقبلت بيروت جثمانه إستقبالًا ما عرفه الغزاة الفاتحون وسارت وراء نعشه إلى مسقط رأسه أرتال من السيارات سدت الطرق والشعاب بين العاصمة وبشري، وأودع دير مار سركيس المطل على الوادي المقدس...

وأحتفل القوم بعودة النسر إحتفالًا إمتزجت فيه عبرات الحزن ودموع الفخر، فمن يزر تلك البقعة اليوم يهده أهلها إلى متحف جبران وقد زخر بآثاره الفنية والأدوات التي كان يستعملها في الكتابة والتصوير إلى المنضدة التي كان يجلس إليها والمقعد الذي يقيل فيه ثم يسيرون به إلى ضريح جبران في خشوع ووقار ولقد حملهم الزهو والخيلاء إلى أن يكتبوا على الضريح يوم أقاموه: هنا يرقد نبينا جبران» فعدلوا بعد ذلك عن الغلو في الفخر إلى الغلو في المحبة ونقشوا على الضريح:

"هنا يرقد بيننا جبران ١٩٣١".